المشرق

السنة الثانية والخمسون

آذار – نيسان ١٩٥٨

الانسان الكامل وميزته النشورية في الاسلام

بقلم الاستاذ لويس ماسينيون

تمهيد

ان الموضوع الذي يعالجه الاستاذ ماسينيون هنا هو واحد من تلك الابحاث الكبرى التي تعود المهتمون بالشؤون الاسلامية والصوفية خاصة ان يقرأوها تحت ريشة الاستاذ الكبير صاحب « آلام الحلاّج » . قد يفوت الكثيرين فهم هذا البحث الذي هو ثروة يخجل لديها فقرنا العلمي . ولقد كان نقله الى العربية ضرباً من الشعوذة اللغوية . فالنص الفرنسي ذاته هو آية في الصعوبة والاعجاز ، وذلك لان اسلوب ماسينيون خاص به ، وتعابيره صارمة يزخر فيها النفس الملحمي فتضجّ الكلمات وتتصادم الحروف ، واذا به يطوّقك من العلم الى الفلسفة الى الشعر ، ويسلمك نبرةٌ تحاكي وحيَ النبوءات القديمة .

وهذه الترجمة التي نقدّمها اليوم « للمشرق » كان حاولها عبد الرحمن بدوي في كتابه « الانسان الكامل في الاسلام » (القاهرة ، سنة ١٩٥٠ ، ص ٧٩ – ١١٢) . واذا كنّا نعيد المحاولة ذاتها فلاسباب عديدة منها ان ترجمة الاستاذ بدوي ، رغم إقرارنا بالخدمات الجلّى

التي أدّتها لنا ، قد اخفقت حيناً في فهم المعنى واحياناً في اداء المبنى ، ومنها ايضاً ان يتعرّف الكثيرون على هذا البحث الذى نشر في مجلة[1] صعبة المنال ، موقوفة على بعض القراء المعدودين من ذوى الاختصاص العالي .

ومن الاسباب ايضاً اهمّها اعترافنا بفضل رجل لن تُذكر الصوفيّة الاسلامية من بعد ، طالما هنالك اسلام ومستشرقون ، إلا وذُكر اسمه . وقد نعود يوماً الى درس شامل لفكرته وآثاره في حقل التصوف الاسلامي ، وللطابع الذي خصّ به جهاد المعنيّين بالاسلاميات اليوم ، ولرسالة «اللاعنف» التي يبشّر بها ابناء جيله ، انه واحد من القلائل الذين وهبوا دون مِنّة بعد ان وُهبوا بغير حساب .

ميشال الخايك

١

قبل ان ابدأ في درس المعطيات الاسلامية حول «الانسان الكامل» ، اودّ ، حسب تعبير يونج (Jung) ، ان «ادخل حلقة اللعب» فاقود القارئ ضمن «ساحة المعقولية» حيث تُعتبر كحقيقة صادقة مثلُ هذه المواضيع ، ذات الصبغة النموذجية المتفاوتة الالوان . فجذا لو أُتيح لعالم اجتماعي يعنى بالشؤون الاسلامية ان يعرض ، بشكل عام وحسب الطريقة «الوجودية» ، اهمية هذه المواضيع الحيوية ، الآن ، وقد أوشكت ان تدق ساعة «الحساب الاخير في اذن اوربا المستعمرة (وفي اذن الصهيونية التي تماثلها)» ذلك «الحساب» الذي يندمج في الصيحة المتصاعدة من افواه الشعوب المستعمَرة المطالبة بحقوقها ، بعد ان حرمناها نحن نصيبها من امتيازات حضارتنا .

اجل هو «الحساب الاخير!» ولقد صدق الفيلسوف الوجودي المسيحي ، غبريل مرسل (Gabriel Marcel) ، اذ لاحظ ، في مقال عنوانه : «التكنية والخطيئة»[2] ، «ان حزب المسيح» (Léviathans) قد تنادت في الكون كله فانقلبت جريمةً عامة ضد الحياة ، وان القنبلة الذرية ترامت تهديداتها بالافناء حتى حدود الشمول . نعم ، لا يزال بعد هنا وهناك صدى احتجاجات خافتة

(١ Louis Massignon, *L'Homme Parfait en Islam et son originalité eschatologique*, dans Eranos — Jahrbuch (Zürich, 1947), XV, pp. 287-314.

(٢ G. Marcel, ap. « *Le cheval de Troie* », I, p. 76-94.

تدعو الى « الرفق بالحياة » ؛ ولكن التكنية لا ترفق ، والتي هي نصيب النخبة المتحضرة ، تصدّ عن سماع تلك الاحتجاجات المتهاملة المتضائلة يوماً بعد يوم. وبما ان الانسانية أمست على وشك الانتحار ، فلقد ولجنا حقيقةً ، أيقنّا ام لم نوقن بذلك ، في عهد نشوري .

كذا تدلّ الظواهر اليوم ؛ أما من حيث باطن الاحداث فاننا حين نسمع فلا نكتفي بسماع صرخة العدالة منطلقةً من حناجر التعساء المحتشدين غصباً في المصانع التكوينية (Concentrationnaire) ، اذاك يتحسس وجداننا بان هنالك ايضاً خطراً للخلاص مداهماً من صوب العالم الاخر . ان هذا المظهر الاخروي واحد من الاغراض الفلسفية والدينية المتنوعة الافاق التي تهتم بدرسها المجلة الباريسية المسماة : « الله الحي » (Dieu Vivant) . قد أنشئت حديثاً في باريس « لجنة مسيحية للتفاهم » بين فرنسا والاسلام ، ولكن في الوقت ذاته ما برحت اقلية من زعماء استعماريين في اميركا واوروبا يستمرون في معاملتهم الامتهانية للاربعمائة مليون مسلم في العالم (وللاثنمائة مليون هندوسي وبوذي) . وأمام هذا الواقع الحالي يخيّل الينا الشعور المبهم ان « الانسان الكامل » لن يكون ذلك الانسان الآلي (polytechnicum) ، سليل المصانع المغرور ، الذي تنجه اصابع التقدم في علم الفيزياء والكيمياء ، بل بالاحرى سينهض طالعاً علينا من البيئات البشرية التي عُوملت على اشد ما يكون من الامتهان ، متخذاً نبرة « الحاكم » الذي أُلجئ الى لفظ قراره النهائي[1] .

ومهما كان الامر ، ففي ظننا ان فكرة « الانسان الكامل » قد نشأت في الرؤى السامية ، لا في فلسفة الاغريق الذين نظّموها فيما بعد بقوالب متحجرة. فهي عند انبياء اسرائيل فكرة « عبد يهوه » ، فكرة « البار المبتلى » المزمع ان يعود ظافراً الى كرامته في آخر الزمان ، فيُظهر « مجد البار »[2] الذي اخفى الله « سرّه » على الملائكة ، « السرّ » الذي هو تلك « الامانة » التي ما سوى

---

(1) *Cahier VII de « Dieu Vivant »*, Paris, éd. du Seuil; cf. « *Témoignage Chrétien* », Paris, 27/6/47. 15.8.47 (et «Combat», Paris, 22/6/47, 23/7/47).

(٢) اشيا ، ٦٦ : ٢٢ ؛ وراجع

Léon Bloy, *Lettre à Hello*, 18/8/80 (in « *Mendiant ingrat* », 2,79).

القلب البشري من يستطيع حملها ، (قرآن ، ٣٣ : ٧٢ ؛ « ذهاب الامانة » ابن ماجه ، سنن ، ٢ : ٤٩٩) . وهذه الفكرة هي ، في المسيحية ، عودة المسيح في آخر الزمن ، وتتويج الكنيسة المثلثة الملك ، وتاليه كل الذين حملوا بالله بقلب واحد ، وتمجيد انتقامي لكلمة « كن » العذراء . والفكرة ذاتها هي في الاسلام ، فكرة « شاهد القِدَم » ، صوت الروح المحطم في رجعته كلَّ رمز وثني ، اذ « يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً » : انه الانشودة التي ترنّ ، ملأى بالايحاء ، لدى تحسسها بالجمال الازلي وهو على وشك ان يُبتعاد .

والفكرة السامية حول « الانسان الكامل » مكينة المُرى بالاسلوب النبوي. وبالرغم من الاحكام الهندو ـ اوروبية المتسرّعة ، فالنبوة ليست غايتها ، عند الساميين ، ان تنتقل الى صيغة المستقبل مع احواله المستقبلة لتلوّن الكلّ « بلوننا المحلي » و « بزماننا الذاتي » ، نحن معشر الآريين ، وليس عليها ان تندمج في السياق العَرَضي لتلك الاحداث المتقطعة ، المتفرقة التي تعبّر عنها اللغات الالتصاقية .

والاسلوب النبوي ، في اللغات السامية ، يُدخل حالة الفعل التام في الفعل الناقص ، ويُدخل المطلق في النسبي . و « معجزة » النبوة هي انها تعبّر عن ذاتها ، — لا بتقطيع خطّ الزمان الهارب (بواسطة احداث متقطعة اللُحمات ، احداث عارضة ، نقطية ، دقّاقة كدقات الساعة التي تُضاف الى بعضها البعض لتمدّ الحركة ، كما في الساعة الرملية الارسطاطاليسية) ، — ولا ان تعكس زمان الكواكب المتمدد السير في جَريه الدوراني ، ذلك الزمان الذي هو ، حسب افلاطون ، لمحة من الابد (مطّلعةً على رجعاته الى الوراء ، وقفزاته الى الامام ، وخسفاته بواسطة الاغنومن الكلداني النصف كروي) ، — ولكنها تعبّر عن ذاتها عندما تجمّد عقرب الرقّاص فوق درجة الصفر من درجات دورانه (الراقص ، مع نبضات الحياة حول اللحظة الحاضرة) ، فوق « نقطة البكار » لدى الدروز ، فوق قمة إسراعه ، فوق نقطة الوصول الغير المنتظر الى « مقام الخلاص » (القديس اغوسطينوس) .

وإيقاف الزمن هذا هو « المصيبة » . والمصيبة هي العنصر الاول في كل ملحمة ، مصيبة تفرض العدل اذ تفكك جهاز الطبيعة الفاني فتقدس الطبيعة ،

وتضمد كالطبيب جراح غريزة القداسة فينا . والمصيبة هذه تضرم فينا نيران غائيتنا القصوى حيث ندرك سبب وجودنا ، وذلك بادراك فجائي ، قرباني ، يحقق فينا شخصياً ذاك الرمز او تلك الفكرة النموذجية من التاريخ الانساني. وهذا الانفعال المحوري ، في الزمن الرقاص ، الذي هو الملحمة ، يجلو « باسلوب القهقرى » غائية التاريخ (تضامن في شخص آدم واستعادة الزمن في شخص المسيح) ويُطلع من جديد حجارة الزاوية معروفة « بعد ان رذلت قديماً » وذلك حين يقابلها « بلبنة الفضة » المفقودة ، وبنقطة الالتقاء في قبة « البنيان المرصوص » المقدسة . وهذه الملحمة تدير ايضاً فوهة الصور الصارخ نحو بدء الزمن وتعكس نظره الحاكم من النتائج صوب الاسباب ، ؛ وهي تجاور اللامات المعترضة فتذكر بشاراتها النموذجية ؛ وإذ تجتمع العناية الالهية كل المحن والضغائن والاخفاقات ، اذا بالذين قُدّر عليهم الحب تنجلي وجوههم فيبيضون ويُعزّزون ويُحققون كأنهم اهداف شخصية ، امام انظار الملاء « لا احد اغير من الله » (البخاري ، توحيد ، في نهايته) ، « لن يجيرني من الله احد » (قرآن ، ٧٢ : ٢٢) .

ومهما قيل ، فان نبرة صدق تنطلق من هذه النصوص التي تنفر منها افهامنا ، وذلك لان فيها يتسلسل المدى ويتبدّل الزمن ؛ وهذه الاضطرابات المقصودة قد رُبطت باستعمال معتمد لبعض الاعداد الصحيحة ذات المعنى النموذجي ؛ فاذا بالعصور تتداخل ، وبالمجالات الزمنية تمحي منافاتها ، والغاية من كل ذلك هي ان تجعلنا نستقرّ في محور المشيئة الالهية . فالتصاوير التي تتصادم وحشية ، شاذة ، في هذه النصوص ، وتجعل الحيّة نصيب مقاييس الجمال عندنا ، تقودنا الى ان ندرك ان كتّابها « الملهمون » هم سلفاً شهود القيم الانسانية المقلوبة رأساً على عقب في آخر الزمان ، وانهم لم يحاولوا أن يصطادونا في شباك الغائية المتكتّلة ، ذات « الخيوط الغليظة » ، خيوط « الخدعة الكتابية الكبرى » (Grosse Täuschung) التي تكلم عنها الدكتور دليتش (Fr. Delitzsch) : فهم في الله يتحققون ان هنالك لحمةً جوهرية بين ما يتوقعون من احداث عتيدة تمزّق احشاءهم ، وبين النبوءات السابقة التي تثبّت اسلافهم من حقيقتها . فاذا بذاكرتهم تصبح رجاء ، ولذلك فانهم يستخرجون تباعاً « بعضاً مما سيحدث » فيولجونه فيها .

النبوءة هي افصاح ملائكي الى الطبيعة الانسانية عن اتمام غائيتها بشكل خارق الطبيعة . وهذا لا يتمّ الا بتهديم الظاهر ، بنقض الهيكل الجسمي ، لتنجلي بعد ذلك النيّة العميقة وغاية العبادة الداخلية ، فاذا بالنفس ، عارية امام الله ، تجد في ذلك النوع المقولي الذي به تبلغ حدّ الكمال فيّتها ، شهادةً قصوى للحق الذي يجب عليها ان تعبّر عنه . وهي تعبّر عنه اذ تفوه بعبارة خلّاقة تبتدئ بضمير المتكلم : « انا » الذي هو الله مثبتاً وجوده المباشر من خلال تحطيم الايقونة وحطم الصليب المادي . انه الله وانه ايضاً « الانسان الكامل » . فليس بعدُ لاهوت متأنس ، بل ناسوت متأله .

وهكذا نرى ان الرؤيا الاخروية تحمل معها تحقيقها ، ولكن ذلك لا يتمّ باستعمال طارئ لعبارٍ مُفرِض ، بل عندما تنجلي غوامضها الاولى تحت التأثير الباطني الناتج عن عامل تحليلي حادّ ، عن تفسير جارح في الصدر (شرح الصدر). ان في هذا تبديلاً للقيم «يوقظ النائم» (ابن سبعين) ، وصرخة الأمة وهي تلد » (الجيلي[1]) . وليس سوى تواضع نذر الفقر ما يخوّل الانسان ان يصير « حاكاً » ، وما سوى يتم الأب ، المولود من كلمة « كن » من يستطيع ان يحيي الموتى . هناك نصّان في الانجيل لا يعادل قيمتهما الملحمية اي نص آخر ، وذلك لانهما لم يتحققا بعد وهذان النصّان هما طوبويات « موعظة الجبل » و « تخلّ نفسي » (لوقا ، ١ : ٤٦—٥٥) وقد لا يجد صنّاع التفسير الحرفي الاشتراعي سوى نسيج من الحماقات في هذين النصّين اللذين يبشران بقدوم « الانسان الكامل » وبانتصار المظلومين . اما اولئك الذين حُرموا كل شيء ما عدا الظمأ الروحي الى العدالة ، فانهم يُقبلون عليهما متمسكين بهما بكل رجائهم الصامد ، غير المغلوب .

اجل ، عديدة هي الكتب المنحولة والمزيفة المنسوبة الى الانبياء ، حتى في بعض النبوءات الحقيقية . ألم تُمثّل مثلاً ، في قضية جان دارك ، نبوءة مرلان (Merlin) عن « الفتاة الآتية من غاب عتيق » كلتي (Celtique) اذ اقتُطعت

---

١) عبد الكريم الجيلي (المتوفى سنة ١٤٢٨ ؛ انظر كتابنا « *Recueil* » ١٩٢٩ ، ص ١٤٨) في « الانسان الكامل » ، طبعة القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ، جزء ٢ ، ص ٥٠ : « تلد الامة ربتها » انظر كلمة « صيحة » في القرآن ، ٥٠ : ٤١ .

منها فقرة خاصة بالحواشي المكانية . ولذلك كان بوسع جان دارك ، كما يظهر من سياق دعواها سنة ١٤٣١ ، ان تدعي لذاتها دون اتيا بهتان تحقيق ذلك الموضوع النموذجي كله ، ما خلا تلك الفقرة التي أسقطت من نبوءة مرلان ..

اما النبوءات الكاذبة الموضوعة لخدمة السياسيين العاملين ، فانها تندثر سراعاً لما يعتريها من تناقض داخلي . فهي لا تثق بقيمة الرموز ، بينما تتطلب منا ان نثق بقيمة اولئك الزاعمين بانهم حظوا بانعام تلك الرموز . ففي سنة ١٩١٧ خطر للمكتب البريطاني في القاهرة انه يستطيع تأييد هجوم جيش القائد ألنبي (Allenby) على القدس ، فاستغل المصادفة بين كتابة اسم ألنبي بالعربية وبين قراءته بلفظ النبي ، وهكذا تنبأ المكتب بالاستيلاء على المدينة . ولكن العالم العربي حينذاك لم يأخذ كثيراً بهذا التزييف الساذج في مصلحة نبي أرغم على امره وكان بالاحرى اشبه بالمسيح الدجال اذ انه اعاد اليهود الى القدس دون ان يحفل بمسيحهم .

٢

ان فكرة « الانسان الكامل » ظهرت منذ عهود متقادمة في تاريخ المبادئ الانسانية . فالدراسات التي تعنى بمقارنة الاديان ، حين ترقى الى الاساس الاري الجامد لتبدأ به بحوثها ، تجد صورة « الانسان الكامل » في « الانسان الابتدائي » (Urmensch) ، الذي هو « الجيومرث » (Gayomerth) عند المزدكية ، و« ادم قدمون » عند القبالة اليهودية و« الانسان القديم » عند المانوية المستعربة . ولا بد من الاعتراف بان نظرية في وحدة الوجود العقلانية في الاسلام أدت في عهد متأخر الى تكوين نظرية في الانسان على انه « انسان عين الوجود » (المخلوق) ، فأخذت كلمة الكلمة المتجسد عند النصارى فكرة نموذجية هي الطابع المقوي الذي اودعه الخالق في خلقه ، فاذا بين الخالق والمخلوق نوع من اللحمة المجردة (أساء الى سر الخالق) . و« انسان العين » هذا هو النبي محمد ، قبضة من النور النبوي الازلي زعموا ان الله قال لها : « كوني ! فلولاك ما خلقت السموات » . وفي هذا شيء من القول بمثل « الحب بلا دنس » بجماعة

المصطفين من المسلمين (ولكننا في الواقع نعلم ان القرآن (٣:٣١) لا يقول هذا الا عن عيسى ومريم) دون ان يعادل هذا الدورَ الازلي دورٌ اخروي . اما في المسيحية فهذا « الحبل بلا دنس » لم يوجد الا مرتبطاً بالدور النهائي الخاص بالحاكم الفادي (= يسوع) ، بينما عند اولئك المسلمين القائلين بوحدة الوجود لا نراه ابداً يفترض ان النبي سيكون الحاكم في يوم الحساب الاخير . وبما ان الثنائية العدلية هي عند الساميين عنصر جوهري في فكرة الانسان الكامل ، فان خلوّ نظرية « انسان عين الوجود » (الاسماعيلية ، ابن العربي) من الطابع النشوري الحيّ لم تحدث اي تأثير على التطور الاجتماعي في العالم الاسلامي . وهذا ما يعفينا من تحليلها هنا بالتفصيل . فهي اذا تحدّرت من تأليهٍ فلسفي للعقل الفعّال ، بينما الانسان الكامل الحقيقي الذي ينتظر الاسلام مجيئه هو مسيح من المسحاء .

وهنا يصدمنا الاعتراض التقليدي : أو ليست فكرة المسيح اليهودية ذاتها ايرانيّة الاصل ، اذن آرية (Reitzenstein) ؟ أو ليست ايضاً فكرة الانسان الكامل الاسلامي بمعناها النشوري الحي هي ذاتها ، منذ بدء تكوينها ، فكرة المهدي « المنتظَر » عند الشيعة الامامية ، وهؤلاء كان معظمهم داخلين في الاسلام من اصل ايراني ، اي آري اذن ؟

لا شك في ان التاريخ الايراني الذي عقب العهد المزدكي ما برح ينفرج عن توقٍ سام الى العدالة (فهناك الاعتقاد بمخلصين منتظرين : سوشينت ، ميثرا ، بهرام ، سروش ، وسائر « المبعوثين » المنويين) . ولكن ايران كانت دوماً تضم عنصراً سامياً ، طبقةً من الكتبة المطبوعين بالروح السامية ، ومن المحتمل جداً ان يكون هؤلاء تركوا اثرهم في هذا التاريخ الايراني ، وذلك بستة قرون قبل المسيح . ففي ذاك العصر كانت فكرة مجيء المسيح تتضخم ، بسبب الجلاء ، في نفوس الذين سبوا الى بابل وأنفوا عن ارض الميعاد . وفي ايران حينذاك كان تفهّم كاف لهذا الرجاء بالمسيح المنتظَر أدّى الى السماح بعودة اليهود الى اورشليم وتجديد بنيان الهيكل . وعلى النحو ذاته نشهد منذ فجر الاسلام ، في اليمن العربية ، نشأة الفكرة ذاتها تقول بمخلص منتظر يأتي « ليعيد كل حق الى نصابه » ، وهو القحطاني صاحب العصا ، « منصور اليمن » . وبما ان

الجاليات اليهودية والايرانية ، وهي كثيرة العدد في اليمن وقتئذ ، لم تندمج في القبائل العربية عن طريق الولاء الا بعد اعتناقها الاسلام ، وبما ان القحطاني ، منصور هذا ، قد أحصي بين الموالين فتعرّف اليه بنو كنده في شخص ابن الاشعث ، وبنو همدان في شخص عامل علوي (ابن وهب السبأي ، منصور القرمطي) ، وبنو الحارث في شخص إمام كيساني عباسي (السفاح ابن الحارثية) ، لاجل كل ذلك تبدو لنا هذه التصاميم الاولية « للانسان الكامل » عربية صرفة.

وازاء نظرية وحدة الوجود التي تكلمنا عنها سابقاً ، نشأت فيما بعد محاولة توفيق هرمسي الترعة غايتها ان توحد بين « انسان عين الوجود » والحاكم النهائي الذي يسميه الهرمسيون الاغريق « أغاثوديمون » (Agathodémon) كما ذكر ذلك اخوان الصفاء في « رسائلهم » الجامعة . ويجيء ابو سليمان السجستاني[1] فيقول ان السعادة القصوى هي الوصول الممكن منذ هذه الحياة الى « الطباع التام » اذ يلبس هذا « الطباع » المظلة الالهية (الربوبية عند الكندي ؛ راجع « الماجد » المنسوب الى جابر ، طبعة كراوس P. Kraus) .

ولكن هذه الاعتبارات وما شاكلها هي مضللة . فلا بدّ لنا اذاً من عودة الى القرآن والتأمل في نصه تأملاً محورياً ، منيناً ، سليماً ، لكي نرى كيف نمت فكرة الانسان الكامل مع كل متطلباتها النشورية ، نمواً اسلامياً خالصاً .

٣

لقد حاول كازانوفا (Casanova) ان يبرهن عن ان محمداً كان يعتقد في نفسه موقناً انه نبي « انتهاء العالم » ، اذن هو « الانسان الكامل » . ولكن القرآن يقول عن عيسى « انه لَعِلمٌ للساعة » ، (قرآن ، ٤٣ : ٦١) لا عن محمد ، وإلا لاحتجنا ان نضع من قدر اخلاص محمد في ايمانه بالله محور الكون ، ومن قدر تعبده للقرآن الذي كان يصليه . وهو كلام الله هذا الذي كان يهيب به لا الى ان يحقق انباء العالم بل ان يذكر الامة المحمدية بهذا الانتهاء المزمع وذلك باسلوب اشد عنفاً في توراة البرد والانجيل النصارى . فمنذ الجيل الاول

١) السجستاني ، مخطوطة كراوس ، الرسالة الثالثة : « في الكمال الخاص بنوع الانسان » .

للهجرة كانت السورة السابعة عشر تُقرأ للعياذ من الدجّال (الذي هو يأجوج ومأجوج ، عند ابن ماجه ، « سنن » ، جزء ٢ ، ص ٥١١ ، ٥١٣). وفي « حجة الوداع » سنّ محمّد ، بصورة نشورية غريبة ، شعائرَ الوقفة في عَرَفات ، وإذ أبقى على الحج كفارةً عن الذنوب ، « أدخل العمرة في الحج الى يوم القيامة ». وهكذا يتجاوز الشرعُ آفاقَ الحرم (صرفا في الجُلّ) ويتجاوز الربا والاخذ بالثأر واستعبادَ المرأة ، ويتصاعد قربان الفؤاد ، في دعاء مطلق من القيود ، حتى حدود الغفران ، واذا بالجنة تتراءى على الافق نازلة كالعروس من السماء ، « مع نزول الله » (قرآن ٥٠ : ٣٠ ، وراجع « رؤيا » يوحنا) . واذا بجسد اذاك ، فيما يتعلق بشخصه ، ينحاز (كما فعل ابليس حسب قول الحلّاج) الى صورة العبادة الاولية فيغار على الانكماش فيها ، تركاً للحجّاج المسلمين الاتقياء ان يحققوا في نفوسهم عند تأملهم بالقرآن ، مهمّة « إكمال الدين » التي تكلم عنها وقت حجة الوداع . وكان ذلك ببضعة شهور قبل ان يعاجله الموت المبكر ، فيكون موته « المصيبة » الاولى التي تفتتح مصائب انتهاء العالم . اما تلك المهمة فهي تقديس « الابدال » اولئك الذين القوا اتكالهم كله على الله ، اقتداء بابراهيم .

وليست هي النزعة الجوفية في الاحاديث التي جمّعها اصحاب التفاسير والمُسنَدات ، بل هي الشعائر الدينية المفروضة بطريقة غريبة ، التي ساعدت الاسلام الناشئ على التنبّه الى ما في التأمل الجماعي بانتهاء العالم من قدرة فعّالة على تقديس النفوس .

ولم يطل الامر حتى ادرك الاسلام ، وهو بعد في المدينة ، ما الاهمية الغير المماثلة للسورة القرانية ، سورة « اهل الكهف » التي كانت تُقرأ للعياذ من الدجّال وما برحت النصّ الشعائري الثابت تُقرأ منذ ثلاثة عشر جيلاً في العالم الاسلامي باسره ، في الصلاة الكبرى كل يوم جمعة (حديث نافع[1]) . وهذه السورة ، في اول موضوعاتها ، تعرض قصة اهل الكهف السبعة الافسسيين ، مظهرةً

١) نافع ، في « لسان الميزان » ، جزء ٥ ، ص ٤٥٢ . أوقد اثنان من خلفاء القرن التاسع بنات الى كهف افسوس والى سور دربند العظيم (البيروني « الآثار الباقية » ، ص ٢٨٥ ؛ ياقوت ، « معجم البلدان » جزء ٣ ، ص ٥٦ .)

كيف ان هؤلاء المؤمنين رفضوا ان يجحدوا دينهم فلجأوا الى كهف حيث احياهم الله بشكل عجيب ، وقلبهم ، « يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » « ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً » ، وكيف ابقاهم ليكونوا له شهوداً في آخر الزمان . اما الموضوع الثاني ، عن موسى ورسول الله (الخضر) ، فيبين لاحد الانبياء كيف ان سر الله ليس سوى اسرار القلوب جميعاً ، تلك التي لا يطلع عليها سوى الاولياء ، الواحد تلو الآخر ، وهم في حضرة الله (قرآن ٥٠ : ٣٦) وفي الموضوع الثالث وصف للسد العظيم ، سدّ يأجوج ومأجوج الحافظ للعالم المتمدن ، وقد هددت جحافل (الترك) يأجوج ومأجوج بفتح ثغرة فيه (يأجوج ومأجوج = المسيح الدجال ؛ انظر قرآن ٢١ : ٩٦) .

وهنالك في السُوَر الاخرى ، آيات متفرقة تدوي فيها اصداء نشورية فتبعث اماًلا ثورية في نفوس « المستضعفين » وفي نفوس « الموالي » خاصة (وهم دخلاء في الاسلام ، من غير العرب ؛ يكاد علي ان يكون وحده المدافع عنهم) . فمنذ خلافة عمر عُذب صبيغ بن عسل التميمي لانه فسّر تفسيراً ملحياً سورة « الذاريات » (قرآن ٥١ : ١) وهي « الرياح المحرقة » ، سموم الجدل (انظر في الذيل رقم ١٩٦ من « خطبة البيان ») ؛ وفي خلافة عثمان ، نهض ابو ذر ينادي باقتراب العهد حيث يقتص الفقراء والمساكين من الاثرياء والمكابرين . واذا بذلك النوع الادبي ، العريق العروبة ، نوع « المثالب والمفاخر » ، يسمو فوق مستوى النزاع القبائلي الى النفس الملحمي ، نظير اسلوب دانته (Dante) وبلوا (Léon Bloy) ، فيصبح بلاغةً ساخرةً ، تلابة تصبُّ اللعنة على البعض والبركة على البعض الآخر ، محطمةً ، في اندفاعها نحو الهدف النشوري ، مقاييس الجمال المألوفة . - وقديماً قال ترتليانوس (Tertullien) : « في سفر الرؤيا يتدكّ صريماً نظام الازمنة ! » (In Apocalypsi, ordo temporum sternitur) .

هكذا تكلم الروح في انبياء اسرائيل . ولكن اليهود اذاك اصموا اذانهم وقلوبهم « الغُلف » (قرآن ٢ : ٨٢ ؛ ٤ : ١٥٤) زاعمين ان برسمهم جعل « يد الله مغلولة » (قرآن ٥ : ٦٤) ، بينما قد لن يكون باستطاعتهم ابداً ان يصبحوا هم احراراً . وعلى النحو ذاته تكلم الروح في « رؤيا » يوحنا الموجهة الى الكنائس السبع الناعمة (قابل مع اهل الكهف السبعة النائمين) : ففيها

عودة الحاكم المنتقم ، عندما يستعيد الروح تاريخ البشرية المنمور بالعناية الإلهية، وقد اعلن يسوع تلك العودة إذ تكلم عنها بصيغة ضمير المتكلم : « انا الالف والياء » ؛ قارن مع الانجيل حيث يقول : « انا الطريق والحق والحياة ! انا الباب ! انا الراعي الصالح ... » . ولكن المسيحيين اذّاك ، حتى الرهبان منهم ، لم يتوصلوا الى ان يدعوا رهبانيتهم « حق رعايتها » بطريقة تحظى « برضوان الله » (قرآن ٥٧ : ٢٧) وتجعل ان يكون فيهم « اناس كاملون » . ومن ذلك كانت فِرَقهم المستطيلة .

والقرآن ، اذ يصب وعود العقاب الالهي على المارقين من اصحاب الوعود الالهية الخاصة ، يهود ومسيحيين ، لا يحمل الى المسلمين وعود « الخطية » ولا الرجاء ببلوغ القداسة في العالم الآخر بل يطوي سجلّ المصير رادًّا الزمن على اعقابه حتى بلوغ الوحي الذي أُعطي لابراهيم ؛ ثم يتوعد المسلمين المنافقين بعقاب مباشر نظير عقاب اليهود والنصارى : « لن يجيرني في الله احد » (قرآن ٧٢ : ٢٢) ، « لا شخص أغير من الله » (البخاري ، في « التوحيد » ، نهايته) .

على كل فرد ان ينجو وحده بنفسه . فاذا كان الحجّ عوضًا عن الغير مستطاعًا فما ذلك الا موقتًا . ولهذا كان لا بدّ للانسان الكامل ان يخرج بشكل من الاشكال على شريعة الانسان . ولقد اصاب الاسلام فهمَ ذلك اكثر من اسرائيل . ولهذا السبب فالاسلام منذ الترمذي حتى ابن سبعين رأى في الانسان الكامل « خاتمَ الولاية » الذي هو روح عيسى الحالّة إما على احد تلاميذه المرتشدين بهدايته (المقدسي ، جزء ٢ ، ص ١٧٢ مثل ابن هود المتوفى سنة ٦٩٩ ، قابل عند الدروز الابداليين : سلمان — حمزه) ، وإما بشكل ظهور شخصي امام الاولياء (ثم امام الصُلَحاء) وحدهم ، ثم امام الناس جميعاً (جسب الحلّاج[1]) . وهذا الظهور لإحكام العدل ، قد ربطه القرآن ثانية مرات بكلمة « كن » الباعثة ليوم الحساب[2] حيث يبدو عيسى منفردًا مجرّدًا كأنه

١) « روايات الحلاج » ، ٢٣ ؛ القرآن ، ٦ : ١٥٧ .

٢) القرآن ، ٢ : ١١٦ ؛ ٣ : ٤٢ ، ٥٢ ؛ ٦ : ٧٣ ؛ ١٦ : ٤٢ ؛ ١٩ : ٣٦ ؛ ٣٦ : ٨٢ ؛ ٤٠ : ٦٨ (في رأي مقاتل ، راجع كتابنا Recueil ، ص ١٩٧ ؛ وكتابنا « آلام الحلّاج » (Passion) ، ص ٥٢٠)

تصوّر تحت البتولية الكاملة ، او كأنه ذلك الحق الذي هو خاتم الحُلق : « لا مهدي الا عيسى »[1] .

ولكن التفكير الاسلامي وجد ذاته حيران لدام امر أشكل عليه ، وهو ان عيسى في مجيئه الاول لم يقض خاتم الحُلق هذا فيبرهن عن برّ الله وعدله بالرغم من ان الله ترك الصالحين يقاسون الاضطهاد ، بينما الانسان الكامل المتيد لا بد له ان يكون اجلّ من ان يُغلب ، من حيث انه الشاهد ، واجلّ من ان يُقتل ويموت[2] ، من حيث ينبوع حياة . ولقد قال : « سيأتي بعدي من ينتصف لي » (يوحنا ٨ : ٥٠) . أترى سيكون بعد شخص آخر غير عيسى يهتدي بوحي عيسى ، وينتصف لذلك العدل المنتقم الذي ينشده الاسلام في جهاده المقدس ؟ « انا عيسى الزمان » تقول الطلبة الشيعة على لسان عليّ (انظر « خطبة البيان » رقم ٢٦٠). ولكن هنالك اقلية متكاثرة من الشيعة المتهوسين ، يجعلون من هذا العادل المنتقم الغير المذكور الاسم (= « القائم » = « المنتظر » = المهدي) شخصاً متحدراً من سلالة النبي ، اذاً فاطمياً ، علوياً .

ويؤكد البلاذري (راجع « الانساب » في « مجلة الدراسات الشرقية » RSO جزء ٦ ، ص ٤٩٥) انه قام ، على اثر موت علي ، اربعة من الثلاثة[3] يتناقلون عنه خطبة « مشكلة الفهم » . ومهما يكن الامر فمنذ سنة ١٢٠ هـ سرت بين الناس خُطَبٌ ملحمية المعاني ووصية وجفر ، وكلها منسوبة الى علي (والجفر

---

١) « لا مهدي الا عيسى » : حديث الشافعي (الحسن البصري ، عن لسان محمد بن خالد الجندي ؛ الذهبي في « ميزان الاعتدال » جزء ٣ ، ص ٥٢ ؛ « لسان الميزان » تحت اللفظة ؛ السبكي ، « الطبقات » جزء ١ ص ٢٨٠–٢٨١ ؛ ابن خلدون في « المقدمة » جزء ١١ ص ١٨٨–١٨٩ ، ١٩٤ ؛ التنوخي في « النتايج » ص ٤٣٤ ؛ الفتوجي في « الاذاعة » ص ٦٤ ؛ هذا الحديث ناقض منذ سنة ٧٤٩ احد الملوبين (المهدى السبأي) ، والسلطة هي لعيسى وحده ؛ والسفّاح هو لقب ملحمي أطلقه الشيعة على علي ؛ قابل بين الاسماء الملحمية التي تسمى بها الخلفاء العباسيون (المنصور ، المنتصر ، المهدي ، القائم) كما ذكر ابن الخطيب في « تاريخ بغداد » جزء ٩ ، ص ٣٩٩ وابن خلدون في « المقدمة » جزء ٣ ص ١٨٣ .

٢) علي وفاء ، ذكره الشرافي في « لوامع الانوار » تحت اللفظة الواردة .

٣) حجر بن عدي ، عمر بن الحمق ، حبّة بن جوّين البجلي العرني ، عبدالله بن وهب الهمداني (= ابن سبأ) ، انظر أصبغ ، حارث الهمداني ، رُشَيد الهجري (عند ليڤي دلا فيدا (Levi della Vida).

هو تفسير ملحمي للقيمة العددية في الحروف الساكنة التي تؤلف الآيات الاولى من بعض السُور القرآنية) .

ومتى طُبق الجفر في قضية الانسان الكامل يكون هذا الاخير هو « الميم » (= ٤٠ = محمد) ، او « العين » (= ٧٠ = علي) ، او « السين » (= ٦٠ = سلمان ؛ عيسى ؟) ولكن رقم ١٤٤ و ١٤٨ من « خطبة البيان » المذكورة في ذيله تقول انه التجلي الاسلامي لعيسى . واخيراً فان « الصيحة بالحق » الكونية (قرآن ٥٠ : ٤١) ، صيحة نوح وصالح ، كانت أساساً لصرخة الحلاج الثورية : « انا الحق » التي أثارت الاتراك ، فلم تكن فكرةً محجَّرة .

٤

وعلينا الان ان نحلل كلًا بمفرده العناصر الثلاثة التي تكوّن هذه النصوص الملحمية التي استعين بها على وصف الانسان الكامل عندما يجيء بين ازمات وبين مصائب جمّة .

هو الجَفر اولًا وهو استعمال عدد الحروف القرآنية المنفصلة (وهو تفسير الامام جعفر في رأي هارون بن سعيد العِجلي ، راجع ابن خلدون جزء ٢ ص ٢١٤). لقد نبّه الاسماعيليون والدروز الى الوجهة السرّية الكامنة في الحروف الخماسية التي تُستهلّ بها السورة « ١٩ » (كهيعص) والسورة « ٤٢ » (حم عسق) فسمّوا الاولى ، « كهيعص » ، « حروفَ الصدق » وسمّوا الثانية ، « حم عسق » ، « حروفَ الكذب » (ضد النصيرية الذين يقرأون الثانية هكذا : « المثلث ع — م — س هو الحق » ؛ قارن في العبرانية كلمة « امث » التي معناها الحق ، خاتم الله ، حسب إرميا ، ١٠ : ١٠ و « التلمود البابلي » ، « شبت » ١٥٥ ، و « التلمود الاورشليمي » ، « سنهدرن » ، ١١٨ ، اعطاني هذا المرجع ف . فيشل W. Fischel) . فالحروف الاولى تعادل عدد ١٦٥ والثانية عدد ٥١٨ ، وكلا العددين يصلح ان يتدخل في السيرة الصوفية لالام الحلاج التكفيرية (باعتباره « انسان كامل ») فداء عن بغداد . وذلك لان حديث ارطأة المشهور (الذي اورده نعيم المتوفي سنة ٢١٨ هـ والطبري) يجعل العدد ٥١٨ سنة تهديم بغداد ، المدينة المزدوجة (وهي في الواقع أُسِّسَتْ سنة ١٤٤ هـ وخربت باعتبارهـا

عاصمة سنة ٦٥٦ ومنها نُقلت الخلافة الى القاهرة سنة ٦٦٢ ؛ فاذا جمعنا ١٤٤ و ٥١٨ نحصل على ٦٦٢ ؛ وقد ردّد الحلاج وهو يحتضر « آيتها » من القرآن ١٧:٤٢) . فالعدد الاول ١٦٥ ، اذا ما زيد على ١٤٤ ينتج عنها العدد ٣٠٩ ، السنة الهجرية لموت الحلّاج (قارن ايضاً بحروف طاء + سين ، فعددهما ٩٠٣ هو مجموع حروف القرآن الاستهلالية وهو يعادل عدد ٣٠٩ منعكساً) ، وهذا العدد ٣٠٩ هو عدد « جوهر الخليل » (الششتري) ، وعدد سني سُبات اهل الكهف المقدس (قرآن ١٨ : ٢٤) . وقد استخدم ابن ابي واطيل ، تلميذ ابن سبعين ، عددَ ٦٨٣ (ك — ف — ج) ثم ، حسب الكندي ، عدد ٩٨ (د — ه) فاستنتج ٦٩٨ سنةً لعودة عيسى الروحية . وقد ظنّ الصوفي عامر البصري ان هذه العودة قد تحققت في شخص المهدي الكاذب الأردبيلي (المتوفى سنة ٦٩٩) ففي ظن الكندي ان عمر تاريخ الاسلام ٦٩٣) .

ومن بعد الجفر ، مواضيع الكوارث في اليهودية — المسيحية ، وهي الفتن واشراط الساعة[1] التي تسلّمها القرآن من جديد فجمّعها واوضحها على طريقته الخاصة : طوفانات ماء ، وامطار من نار ، ومذابح في امكنة العبادة : ويقرع القرآن الى إهمال ذكر الاوبئة ولكنه يتكلم عن القمر (المُرجون) من بين اشارات السماء ، ويستعيد مراراً ذكر مصائب الامس الفاجئة مشيراً الى ميزتها الدورانية اذ تتوالى تباعاً اخطارها الملحمية المهددة . فيضان امواه تغرق مزارع ومدن التجارات الحرام (فالكوفة اصيبت « بتنور » الطوفان عقاباً لها عن مناكحة الجنّ قرب سجن الملاكين هاروت وماروت اللذين أغوتهما نهيد ، قرآن ٢ : ٩٦ ؛ اما البصرة وكانت أصيبت بالعقاب سنة ٨٦٨ لانها لم تلبّي دعوة غلام خليل الحنبلي الى التوبة ، فسوف تبتلعها المياه ؛ قابل بينها وبين مرسيليا التي أنذرت بعد الطاعون) . اما امطار النار فهي التي هدمت العواصم التي ارادت ان تتخلّى عن الله (سدوم ، عاد ، ثمود ، مدين ، اما انذار بابل بواسطة

---

١) نعيم بن حمّاد ، « كتاب الفتن » ، مخطوطة الاسكوريال رقم ٢ ، ١٥٣٦/١٥٣٧ ؛ اختصره المَنّ المقدسي ، مخطوطة عاطف رقم ٦٠٢ (مجلة « الحضارة الاسلامية » Isl. Cult. ، جزء ٣ ، ص ٣٦١) ؛ ابن المنادي (المتوفى سنة ٣٣٦) ، « كتاب الملاحم » الذي افاد منه السيوطي في « العرف الوردي » الذي ذكره الحاوي ، جزء ٢ ، ص ٥٧—٨٦ .

سفر « الرؤيا » ، (وهو صدى لخراب برج بابل ، فهو يستهدف روما ولندن وباريس) وتساقطت لدى صيحة كبرى ، مثل صيحة نوح وصالح . وهكذا على النحو ذاته ، ان بغداد ، المدينة المثاة ، هذه « المدهامتان » الارضية ، قد أنذرت منذ البدء (حديث أرطاة)[1] بالخراب (نهب المغول) وضاح الحلاج عليها قبل الاوان صيحتها (الصيحة عكس البشرى) . اما فيما يتعلق بالمذابح التي تترك مدن العبادة قاعاً خراباً ، فاننا نرى الملاحم تقترح رمزاً يعالج القرآن ايضاحه في موضوعين :

كما ان اورشليم عوقبت بالخراب ، هكذا ستُعاقب ايضاً بالخراب مكة او بالاخص الكعبة . ولكن بينما أُلقي تابوت العهد في بحيرة طبرية (او في انطاكية) ، اعدّ محمد خراب الكعبة الرمزي في حجة الوداع . « فبإدخاله العمرة (وهي خلوة العبادة قرب الكعبة) في الحج (وهو تقدمة الضحية في عرفات) الى يوم القيامة »[2] ، أفصح للناس ان المسجد حيث نحن في احرام امام الله ، اي بدننا ، يجب ان يُهدَم مع الضحية الطقسية ، وذلك في الوقت ذاته حيث نقدم ذواتنا في عرفات ، كتقدمة « الذبيح العظيم » الذي ترمز اليه الاضاحي الحيوانية . ومقابل هذا تصبح اذاك كما تقول « خطبة البيان » تحت الرقم ١٠٥ ، « مائدة الكشف » ، اعني « مائدة الوجد المزيّ » (قابل مع « الطمأنينة »[3]) ، تلك العلامة التي هي سلوانٌ للمسيحيين الحقيقيين حتى انقضاء الزمن ، ذلك « العشاء السرّي » الذي دعا المسيح اليه قبيل « آلامه » المحطّمة. وهكذا فالاسلام كما انه يرجع « المسعودية » الى « الفطرة » ، اي النور الفطري الابتدائي ، فانه كذلك يتلمّح « العشاء السري » كعلامة نشورية ، كتناول عقلي لنوع معقولي غامر بالالوان الالهي (هي « الطمأنينة » عند النصارى وهي « السكينة » عند اليهود) . وبينما كان العصاة القرامطة يتأهبون

---

١) الخطيب ، جزء ١ ، ص ٤٠ ؛ الطبري ، تحت الكلمة الواردة ؛ اما عن خراب مدن اخرى فراجع مقاتل الذي ذكره المقدسي جزء ٦ ، ص ٩٧–٩٨ .

٢) الحلبي ، في « انسان العيون » جزء ٣ ، ص ٢٩٧ ؛ ابن تيمية في « الرسالة السبعينية » ص ٩٣ .

٣) مؤاساة تثبت الصلاة في الله (الشافعي) .

لذبح اهل مكة وتحطيم الكعبة ، ارسل الحلاج الى شاكر بن احمد كتاباً يقول فيه : « اهدم الكعبة (مع مسجد بدنك) وابنها بالحكمة (الميلاد الثاني) حتى تسجد الكعبة مع الساجدين وتركع مع الراكعين[1] . » وبينما كان اصحاب التفاسير الحرفية في زمان الحلاج لا يتفوون من النبوءات المتعلقة بخراب مكة سوى ما يخولهم رؤية هزيمة الاحباش سنة ٥٧٠ قد عُوِّضَتْ بانتصار احباش آخرين ، لعلهم القرامطة ، ادرك الحلاج ان قيامة «كل بدنه المجيدة هي وقف على حبة خردل (= قطعة من جسده الذي أُحرق قرباناً لله) ، وبهذا اوصل رمز حجة الوداع الى قمة معناه النشوري .

ومن الكعبة وقد جُعلت شخصاً هو شخص الانسان الكامل ، تقودنا حتماً مواضيع الملحمة الكبرى (هجوم الروم النصارى على الاسلام هجوماً يبدأ بنقض الهدنة وينتهي بالاستيلاء على القسطنطينية) الى تصوير ملامح «القائم» الذي ينتصب للاظلامات «فيملأ الارض عدلاً كما ملئت ظلماً» . وقد عرض لهويته بما عرض لهوية الضحية التي أُريدت من ابراهيم والتي عرفها الاسلام (ابن حنبل) باسم اسحاق ثم تجلّى ، تحت تأثير البرقية ، عن اسحاق الى اسماعيل . اما «القائم» فقد اجمع اهل السنة على انه المسيح يعود ظافراً لا مُهاناً ، او على انه قائد مظفّر تحلّ عليه روح عيسى ويهتدي بهدايته ، هذا ان لم يكن هو عيسى ذاته . وان ما يثبت صحة هذين التفسيرين فهو الحديث المشهور الذي اورده الحسن البصري والشافعي : «لا مهدي الا عيسى» . اما من غير اهل السنة ، فهنالك شيعيون من الجيل الثاني (المستيرية ، المنصورية) ، ومعتزلة من الجيل الثالث (احمد بن خابط والفضل الحدثي) قد اقتبلوا هذا الحديث ان لم يكن في شكله ففي جوهره ، وهو حديث تشتم منه نزعة الجدل العباسي ضد الشيعة . وفي اواخر القرن الثالث كان يقول بصحته عدد غفير من محدثي اهل السنة ، مثل ابن ماجه ، وابن خزيمة (المتوفى سنة ٣١١) ، وابن زياد النيسابوري ، وابن ابي حاتم الرازي (المتوفى سنة ٣٢٧) ، والساجي البصري (المتوفى سنة ٣٠٧) ، والقزويني قاضي دمشق (المتوفى سنة ٣١٥) ، والطحاوي من القاهرة (المتوفى سنة ٣٢١) ، ويعقوب الاسفرائيني (المتوفى سنة ٣١٦) والطرائفي .

1) ابن دحية ، «النبراس» ، ص ١٠٣ .

وهذ التأمل الاسلامي المتصل الحلقات في هداية عيسى الذي بدأ به الترمذي، قد استمرَّ حتى بعد ابن العربي . ومنذ قرنين ، كانت ثمة في المغرب مدرسة باسرها تتابعَ تعليمُها من ابي المهدي عيسى الثعالبي (المتوفي سنة ١٠٨٠ ؛ انظر الكتاني في « الفهرس » جزء ٢ ، ص ١٩١) حتى محمد الصغير بن عبد الرحمن الفاسي (المتوفي سنة ١١٣٤) وتلاميذه (الأُفراني المؤرخ المتوفي سنة ١١٥١ ، والناصري محمد الدرعي التمروتي المتوفي سنة ١١٥٨) ، مثبتاً ان هذا الحديث معناه ان عيسى روح الله هو الشيخ الهادي الى طريقة الحياة الكاملة ، وان في هذا مجيء « الانسان الكامل » .

واذا كان ، في القرن الاول ، رأي خاص بابن سيرين يؤثر ان يجعل « القائم » في شخص « القحطاني » ، فان اقليةً ما برحت على الاجيال تزايد بين الشيعة ، ترى في « القائم » علوياً ، ثم من بعد ذلك حصرته في سليل فاطمي . واذا بهذا الاعتقاد الاخير يسود ، منذ تسعة قرون ، بين اكثرية المسلمين .

وهذا الفاطمي ، سليل البيت الشرعي ، وهو شاب فارٌّ أخفاه اتباعه (فترة « الكهف » في السورة ١٨ ، حسب الاسماعيلية) ؛ ولكن هذا « العائد » الذي أعلن خليفةً غصباً عنه ، لن يستمر في حكمه الحربي اكثر من تسع سنوات . ولكن هنالك من يعتقدون بمجيء ثلاثة مهديين متتابعين[1] قبل مجيء « الدجال » كما انه ستكون ثلاث كرّات « للرجعة » (القيامة) التي ستنتقم امام الجميع من الظالمين . اما المهدي الثاني فسيكون الحسين (= المنتصر) ، نموذج المستشهدين ، والمهدي الثالث هو ابنه علي (= السفاح) . وسواء تعلّق الامر بهزيمة الروم (= بني الاصفر) التي ألمع اليها القرآن (٣٠ : ١-٢) ، ابّان عهد كسرى ، ومن هذه الهزيمة يستخلص ابن يرجان استعادة القدس ، وذلك بخمسين سنة قبل استردادها فعلاً سنة ١١٨٧ — ، ام كانت له صلة باحتلال القسطنطينية « بفضل الصلوات لا بالسيوف والحراب » (ابن العربي) ، « عنقاء

١) مهدي الخير ، الدم ، الدين ؛ وايضاً ثلاثة سفيانيين « كما في كتاب دانيال » (السيوطي ، الحاوي ، ص ٢ ، ٨٤ ، ٧٨) وثلاث « رجعات لعيسى » (محمد بن حامد للترمذي ، ذكره الشعبي في « الجوهر الفريد » ، ورقة ٣٢ ب ، مخطوطة القاهرة ، مجموعة رقم ٢٢٩) ؛ ثلاث خسفات (ابن ماجه ، « سنن » جزء ٢ ، ص ٥٠١) .

مغرب »، طبعة ١٣٥٣، ص ١٠ و ٦٨) وهو اختلال وعدت به الاحاديث ستة اجيال قبل حدوثه (انظر القرآن، ٢ : ١٠٨) — ، فالاحاديث تتردد في في نسبة هذه الاحداث الى القائم ذاته او الى « الشاهد الثاني » (الذي يبدو مزيجاً من الشاهدين المذكورين في « رؤيا يوحنا »، حيث « الشجرتان الزيتونتان المباركتان » ايضاً جمعها القرآن في شجرة واحدة ؛ انظر القرآن ٢٤ : ٣٥) . ومن جهة اخرى فهذا « الشاهد الثاني » ليس هو تماماً الانسان الكامل، لانه هو الروح الطاهرة، العبد الصالح (الخضر = الياس) الذي سيُغاب ويقضي حتفه شهيداً . ولكنه سيكون السابق، حامل الراية، فيعلن العصيان في بلاد الترك ويمشي على رأس فيالق حاملة رايات سوداً (قابل برايات العباسيين؛ او خمس رايات بيضاء، زرقاء، صفراء، حمراء، زرقاء عند الدروز) فيردّ السفياني (ذي الرايات الخضر المرسومة بعلامة الصليب) واعوانه الكلبيين على اعقابهم، ويوافي السبعة الابدال في الحجاز (او السبعة الراقدين في الكهف، الآتين من بيسان) والعصائب الاربعين (الآتين من العراق) لاعلان بيعة « القائم » (او المهدي) .. ودور هذا الشاهد الثاني » ينتهي بموته على ابواب القدس . اما اسمه فتختلف فيه المصادر، فهو طوراً « القحطاني »، وتارة « منصور »، وحيناً « شعيب »، المولى التميمي، الآتي من طالقان (في الجوزجان[1])، وهذا سبب فتنتين ملجميتين حدثتا سنة ٢١٩ وسنة ٣٠٩) . وفي صفوفه، تُبصر اول جنود « القائم »، وهم مركز في مقدمة الجيش يُخسف ثلاث مرات في الحجاز كما تُبصر نخبة الثلاثمائة والثلاثة عشر نفراً (عدد اصحاب جدعون — طالوت، عدد الظافرين في موقعة بدر) .

وبعد ان يُقضى على النصارى، يبدأ الكفاح ضد اليهود وعلى رأسهم الدجّال (الذي هو « المسيح الدجّال »، التصوير العبراني الاصلي للمسيح المضادّ للمسيحية، وهو آخر حلقة من سلسلة الهراطقة السبعة والعشرين ؛ وقد وصفه نصّ مسيحي مشهور بانه سيكون « ابن اسقف وراهبة عبرانية ») . وهذا

---

١) في حديث طالقان، راجع المقدسي في « البدء والتاريخ » جزء ٣، ص ١٥٧ ؛ « اخبار الخلاج » طبعة ١٩٣٦، ص ٤٨ ؛ القندوزي، في « الينابيع » ص ٤٤٩ (قارنه بابن بابويه في « الاكمال » ص ٢٥٩) .

الدجال سيجترح المعجزات التي اجترحها المسيح ، وسيحتل الصحراء وجميع الموارد العذبة (طبرية ، بيسان ، زُغر) ، فيهدي الناس الى دينه ، ويضرب الحصار حول المدينة (معسكراً في الظريب الاحمر ، الذي هو الكثيب الاحمر[1] ، حيث جرت « المباهلة ») وحول مكة والقدس وسينا. — اذّاك ينزل عيسى ، او قائد حلّت عليه روح عيسى ، هابطاً من السماء على المنارة البيضاء شرقي دمشق فيظهر على الدجال ويقتله في لُدّ[2] ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب وتكون الحجارة والشجر ، ما خلا الفرقد ، عوناً له في القضاء على اليهود الهاربين (اليهود هنا حسب الفقرة ١٨ من عقيدة الدروز ، هم المسلمون السنيون المتعلقون بالتفسير الحرفي) . ولا بدّ من الملاحظة في هذا الصدد ان هذا الوصف العتيق للدجال يتفاوت في الزمن مع تاريخ القائم الفاطمي . ويبدو ان الخصيبي ، وهو من الشيعة ، يخلط بين الدجّال وبين السفياني الذي يسمّيه « عثمان بن عنبسه العفريت » .

وهنالك موضوع آخر قديم العهد (رؤيا يوحنا) هو الدابّة وهي ذات معنى مثنّى هنا (احياناً هي علي) . وقيامها سيكون بين الدخان وبين النار (المنذرة بيوم الحساب) التي تنطلع من عدن او من اصفهان الى بصرى .

ويوافق هجوم « الشاهد الثاني » انهيار سد يأجوج ومأجوج يدكّه قوم « وجوههم كالمجان المطرقة ، صغير الاعين ، خُنْس الانوف ، يلبسون الشعر » ، قيل انهم الاتراك ، وذلك قبل القرن التاسع[3] . ويُنسب اخيراً الى القائم نهضة اقتصادية عامة تمتاز إما بفيض المواد النفيسة (بفيض نهر الفرات

---

١) ابن ماجه ، جزء ٢ ص ٥١٤ ؛ انظر بحثي في « المباهلة » ، باريس (HE(SSR ، سنة ١٩٥٣ — ١٩٦٦ ، ص ٣٦٠ . « اذّاك يعود الاسلام « غريباً » (ابن ماجه جزء ٢ ، ص ٧٧٤ ؛ راجع بحثي في « سلمان » سنة ١٩٣٣ ، ص ٦٣ .

٢) او في عكا (الفتوحات المكية » ، جزء ٣ ، ص ٣٦٤ : اللحمة الثانية = ارما جدّون .

٣) اتراك من بُست (منذ ابن الاثمث الفحطاني ، راجع المسعودي ، جزء ٥ ص ٢٠٢) ؛ اتراك دخلاء على الاسلام من سامَرّا ، او غُزّ كفرة ، او صينيّون (المقدسي ، جزء ٢ ، ص ١٥٤ ؛ النووي حاشية « صحيح » ابن مسلم ، جزء ١٨ ، ص ٣٧ ؛ ابو داود ، طبعة سهرنبور Saharanpur ، جزء ٥ ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

ذهباً[1]) في كتره بالكوفة (في مسجد سهلة) وإما بصك نقود سليمة جديدة الشكل ، مكعبة ، فضية (لبنة فضة) تُسدّ بها آخر ثغرة في سور الاسلام ؛ وبهذا تكتمل الزكاة . ولم يكن غير الحلاج وابن تومرت من جعل هذا « الدرهم المربّع[2] » ، متداولاً بين الناس .

— وكما نَقَلَ الالتباس الناتج عن النظرية الالفية (millénariste) على الشرح المسيحي في تفسير رؤيا يوحنا حول ملكوت المسيح الظافر قبل الحساب الاخير ، كذلك رزح تحته التفسير الاسلامي إذ حاول وصفاً لتلك النهضة الاجتماعية التي سيحققها « القائم » قبل يوم القيامة . أو ليس التكهّن النشوري المشهور المخبر بطلوع الشمس من المغرب الذي يعني اختتام عهد المغفرة ، وحكم العدالة المنتقم ، إطلالاً مباشراً على قواعد المنبر الاكبر ؟ ان النصوص الشيعية تصوّر فاطمة اذاك متشعثة الشعر ، رافعةً صوب الشمس وليدها الاخير محسّن القتيل الذي لم يُثأر له . انها بهذا الشكل تصبّ اللعنة على القاتلين[3] . ولكن فاطمة عند الغلاة من الشيعة هي « حمرة المغرب حيث يطلع الهلال » ، حمرةٌ تُبدّل بها الشمس (= ميم) في اوان « فجرها الغربي » ليوم الحساب . وبما ان فاطمة تُعتبر مجسّداً ثانياً لروح مريم (اذ ان فاطمة هي « فاطر » و « فاطر » من حيث العدد توازي مريم ، اي عدد ٢٩٠) فابتهال فاطمة يماثله انتصار المرأة التي تمثل كنيسة الشهداء الذين في رؤيا يوحنا ، غشوا لإمهال العدل الالهي (قرآن ٥ : ١١٦ ؛ ١٩ : ٣٩) .

اما الذين يجعلون من مجيء « القائم » ومن مجيء عيسى ، « مجدّد العصر » ، شيخ الطريقة الكاملة في نفوس الصوفية ، حدثاً واحداً ، فقد صوّروا انتصار المرأة هذا على أنه انتصار « الرفيقة » عروس عيسى في الجنة ، تلك الراعية البدوية

---

١) مسلم — نووي ، جزء ١٨ ، ص ١٨ — ٢٠ (قابل بتعذيب الحلاج) .

٢) ساسي (Sacy), Chrest. ، جزء ٢ ، ص ٢٨٣ في التعليق ؛ غولدتسيهر Goldziher, ZDMG. XLI, 41.71,103 ؛ ابن خلدون « المقدمة » جزء ٢ ، ص ٥٨ ، ١٩٣ ؛ ابن دحية « النبراس » ، ص ١٠١ ؛ « الفتوحات » ، جزء ١ ، ص ٣٥٥ .

٣) المصيبي ، « الهداية » ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ فاطمة ، « ام ابيها » تضع محسّن بين ذراعي جده .

التي « ترعى الغنم مع الذئاب » ، شوهـاء ، « امرأة بلا رجلين ولا يدين ولا عينين » ، ولكنها « في سلام الله » (راجع ابو نعيم ، « الحلية » ، جزء ٦ ، ص ١٥٨ ؛ جزء ١٠ ، ص ١٧٧ ؛ والنيسابوري ، « عقلاء المجانين » ، ص ١٢٤ ، ١٢٩ ؛ والشذله ، مخطوطات الڤاتيكان العربية ، رقم ٣٢ ، ١٥٤ ؛ انظر في ذلك ليڤي دلا ڤيدا « فهرست مخطوطات الڤاتيكان » ص ٢٨١ ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، « روضة التعريف » بمخطوطة الظاهرية التصوفية ، رقم ٨٥ ، ورقة ١٣٠ ؛ وليون بلوا ، « حياة ميلانيا » ، Léon Bloy. Vie de Mélanie ، ص xvi) .

٥

كل هذه الموضوعات التي ذكرناها آنفاً كانت متفرقة ، منفدة فلمّها جمّاعون كانوا في النزاهة يتفاوتون وجمعوها في كتب دُعيت « كتب الملاحم » . واقدم هذه الملاحم كانت شعراً (قابل بالاناشيد السيبلّيه Chants sibyllins اليهودية اللاتينية) ، منها ملحمة معدان السُيطي (المتوفي حوالي سنة ١٦٥ هـ) في المهدي الشيعي (كما اورده الجاحظ وابو الفرج الاصفهاني) ، وفيها ذكر الطائر الخرافي « عنقاء » (الذي اختطف الطفلَ المضطهَد وطار به الى السماء) . وفي الجيل الثامن للهجرة ، حلّل ابن خلدون الملاحم التي تداولت استعمالها الأسرُ الحاكمة في افريقيا الشمالية وجماعات الصوفية (مثل القلندري الباجيرقي المتوفي سنة ٧٢٤) . ثم بعد ذلك كانت ملاحم مؤلفة باسلوب السجع (راجع في الذيل ، « خطبة البيان » ، الرقم ٣) . واخيراً بين يدينا محاولات نثرية هي سرد لبعض السير قبل اوانها (ملحمة بحيرا المزعوم التي حلّلها آبل (Abel) ، ونصوص تركية من الجيل العاشر للهجرة وقد درسها داني Denys) فهي إما سيرة الانسان الكامل (المسيح بن داود اليهودي) وإما سيرة « شاهده المبتلي » (المسيح بن يوسف اليهودي) . وهذا الشاهد ، قائد طليعة الرايات السود (الذي مثّله من قبلُ ابو مسلم سنة ١٣٠ هـ) ، الذي يأتي من بلاد الترك ، دعاه نعيم (وآيده المقدسي في « البدء والتاريخ » ، جزء ٢ ، ص ١٥٧) باسم شعيب بن صالح الطالقاني ،

مولى تميم ، ذي اللحية المتفرقة ، وهو يسبق مجيء « القائم » (الحسيني ، او الحسني الزيدي ، الآتي من خوتن ، في الصين = ماسين) فيظفر على السفياني (ذي الرايات الخضر المرسومة بعلامة الصليب) في البيضاء قرب اصطخر ، ويحتفل بتسليك « القائم » والابدال السبعة في مكة ، ثم يُذبح « كالشاة » ، قبيل انحدار بني كلب السفيانيين في بيسان ، في بطين وادي قدرون ، في ايليا (= القدس). وقد اعتبر اهل طالقان الحلاج في حياته انه هو شعيب هذا المُنبأ عنه ، ثم رأى فيه الشاذلية ، ثلاثة قرون بعد ذلك ، انه ابو مدين الشفيع القديس المحامي عن تلمسان (انظر السيوطي ، الحاوي ، ٢ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥) .

٦

وها نحن الآن نحلل بالتفصيل « خطبة البيان » ، اذ انها النص الملحمي الاسلامي الذي كان اكثر النصوص تنويماً في تكوينه على تعاقب الاجيال .

ان آخر رواية له كانت رواية كامل الدين ابو سالم محمد بن طلحة الحلبي (الجيل الثالث عشر) في كتابه « الدر المنتظم » (راجع مخطوطة التوسيي ، من ورقة ١ الى ١٢ ؛ والايراني ، ٣٥ — ٤٤ ؛ والقندوزي ، في « ينابيع المودة » ، ص ٤٠٤ — ٤٠٧ ؛ ومخطوطة باريس رقم ٢٦٦١ ، من ورقة ٢١ ب الى ورقة ٢٤ أ) حيث نراه يتألف من ثلاثة اقسام : ديباجة تمدد اسماء الله (« خالق السموات والارض وفاطرها . . . ») واسماء النبي محمد (« الخاتم لما سبق من الرسالة . . . ») ؛ ثم تعداد بلسان الخليفة للمصائب المتكاثرة التي لا بدّ من ان تعقب موته (« عظمت البلوى واشتدت الشكوى . . . ») . اذ كان علي فوق المنبر يخطب في مسجد الكوفة الجامع فاطمه كافر يُدعى سويد بن غفل الهلالي يسأله من اين له كل هذا . ففي فورة غضبه ، القى عليه خطبة مؤلفة من ٢٦٨ اسماً حيث يضع ذاته في صيغة المتكلم (« انا سرّ الأسرار . . . »). اذاك خرّ سويد الكافر ميتاً فتابع علي كلامه (« سلوني قبل ان تفقدوني ! » وهي عبارة غدت مشهورة ، مرددا ملحمة ذات عبارات مؤتلفة الايقاع ، ومعددا كل الفتن القيدة حتى آخر الزمان ، ابتداء من « علج بني قنطور » (مهدم البصرة) ثم انتقال الحرب الى ناحية الغرب ، من العراق الى الشام ومصر

(الثوار القادمون من المغرب)، حتى الانتهاء بعد وصول طليعة ظافرة الى القدس، بمجيء « قائم » الاسلام .

اما ميزة الخطبة ففي الطلبة المؤلفة من ٢٦٨ اسما . وبالرغم من ان الرضي لم يذكر عنها كلمة واحدة في مجموعته المعروفة ، الزيدية النزعة دون شك، والتي جمعت الخطب المنسوبة الى علي (« نهج البلاغة ») ، منقولة عن مصادر ترقى الى ١٥٠ سنة قبل « النهج » (الذي جمع حوالي سنة ٤٠٠ هـ ، ١٠٠٩ م) كما بيّن هبة الله الشهرستاني ، بالرغم من ذلك فان « خطبة البيان » قد ترقى الى اواخر القرن الاول للهجرة . وان ما يدل على انها كانت معروفة قبل سنة ٩٦٠ مسيحية ، فهو وجود خطبة اخرى ألفها ابو القاسم (ونشرها متس Mez ، ص ١٥٧) على الصيغة ذاتها لاجل التحكيم ، ووجود اقتباس منها ورد في « بدء » المقدسي (نشره هيوار Huart ، جزء ٢ ، ص ١٧٤) . فاذا كان الغلاة المتأخرون من الشيعة قد ألفوا خطباً جديدة مستقلة عن هذه (راجع عن خطبة البكتاشية ، برج Birge ، ص ١٤١) ، فان النصيريين يحتفظون بخطبتين نسبتا الى علي (طوبخية ، في مخطوطة باريس رقم ٥١٨٨ ، ص ٩٥ ؛ والخصيبي في « الهداية » ، ص ٤٧ ؛ لاحظ العبارة : « انا مُهلك عاد ... » ، وهي عبارة شكا الصولي الشيعي المتشيع للنصيرية ، في دعوى سنة ٣٠١ هـ ٩١٣ م[1] ، الحلاج أنه قالها عن نفسه) . وهاتان الخطبتان تتشابهان كل الشبه ، ويرجع تاريخهما الى ما قبل سنة ٣٠٠ للهجرة .

في الاعلان الكيساني سنة ٨٩١ بعض شذرات من هذه الخطبة (طبري ، انظر تحت سنة ٢٧٨ هـ) . ولكن من الممكن ان ترقى الى ما قبل هذا التاريخ وذلك بفضل مصدر من مصادر « معرفة الرجال » (ص ١٣٨ ؛ انظر المامقاني ، ص ٣٩٢) لمؤلفه الشيعي ، الكشي (سِيَر جُمعت قبل سنة ٩٠٠) وفيه بعض مقتطفات من الخطبة رواها اسمعيل بن قتيبة (المتوفي حوالي سنة ٨٢٠) عن طريق ابي العلاء خالد بن طهمان الخفّاف السلولي الذي كان يرويها ، حسب

١) عبارة مشهورة منذ مُنيرة (راجع المقدسي في « البدء والتاريخ » جزء ٥ ، ص ١٢٦؛ لاحظ وصفاءه السبعة للابدال السبعة) .

زعمه ، عن الامام باقر (المتوفي سنة ٧٣١) . وهذا الزعم له معناه ، اذ ان هذه الخطبة قد تكون عن سبئية الكوفة ، وهم فرقة تعتقد بوجود روح الهي يتقمّص بواسطة التناسخ ، من جيل الى جيل حتى يوم الحساب الاخير حيث تتحقق مجموعة الاسماء التاريخية مكتملةً في شخص « الانسان الكامل » . وهذه الاسماء قد عدّدها الجابران (جابر الانصاري وجابر الجُعْفي) في الكتب المنحولة التي كانا ينسبانها الى الامام باقر ؛ ولا اهمية لرأيهما فيمن هو ذلك « الانسان الكامل » ، أكان الامام « الصامت » (فرقة العينية) ام كان الامام « الناطق » (فرقة الميمية) ، ام كان احد المرشدين الملهمين (فرقة السينية : سلمان او عيسى) .

اما الديباجة فتبدو احدث بكثير في الزمن .

واما الملحمة التي تنتهي بها الخطبة فانها ، كما يظهر لنا بعد مراجعة سلسلة « المصائب » القديمة العهد التي ذكرناها آنفاً ، تبدو وقد فقدت ، لكرّ الزمن عليها ، كلّ نبرة تقريباً .

وهذه هي اهمّ ما في الخطبة من اسماء (وكلها تبتدئ بلفظة : انا)

١ : سرّ الاسرار ؛ ٢ : شجرة الانوار ؛ ٣ : دليل السموات ؛ ٤ : انيس المسبّحات ؛ ٥ : خليل جبرائيل ؛ ٦ : صفيّ ميكائيل ؛ ٧ : مستدل الافلاك ؛ ٨ : سائق الرعد ؛ ١٠ : مربر الضُّراع (= كبة الساء الرابعة) ؛ ٢٠ : كيوان الكهّان ؛ ٢٣ : موثق الميثاق ؛ ٢٤ : عصام الشواهد ؛ ٣٥ : مبيّب الاسباب ؛ ٣٦ : امين السحاب ؛ ٣٧ : مشرّد الملائق ؛ ٣٩ : جوهر القدّم ؛ ٤٥ : الاول والاخر ، والظاهر والباطن ؛ ٦٤ : حناء البُراق ؛ ٧٤ : شلال الحيّال ؛ ٧٦ : مفجّر الانهار ، ٧٨ : مُفيض الفُرات ؛ ٨٨ : امّ الكتاب ؛ ٩١ : أساس المجد ؛ ٩٨ : خامس الكساء ؛ ١٠١ : رجل الأعراف ؛ ١٠٥ : مائدة الكشف ؛ ١٠٩ : سرّ ابراهيم ؛ ١١٠ : شبان الكليم ؛ ١١١ : علانية المعبود ؛ ١١٥ : مخاطب الكهف ؛ ١٢٧ : بشير الترك ؛ ١٢٩ : هنيّا الزنج ؛ ١٣٠ : جرجس الفرنج ؛ ١٣٣ : برشم الروس ؛ ١٤٤ : ايليا الانجيل (طور طابور ، الالام : الخضر) ؛ ١٤٥ : جنّة النزاة ؛ ١٤٦ : كاسي العراة ؛ ١٤٧ : مؤاخي يوشع وموسى ؛ ١٤٨ : ميمون رضى عيسى ؛ ١٥١ : شديد القوى ؛ ١٥٢ : حامل اللواء ؛ ١٥٣ : إمام المحشر ؛ ١٥٤ : ساقي الكوثر ؛ ١٥٥ : قسيم الجنان ؛ ١٥٧ : يعسوب الدين ؛ ١٦٣ : قالع الباب (باب خيبر) ؛ ١٦٥ : صاحب اليقين ؛ ١٦٨ : مخاطب الامواج ؛ ١٧٥ : الجوهرة الثمينة ؛ ١٧٦ : باب المدينة ؛ ١٧٣ : مُحكم الطواسين ؛ ١٩٩ : ١٨٤ : امانة ياسين ، صاحب النجم (الزُهرة) ؛ ١٩١ : جانب

الطور ؛ ١٩٢ : باطن الصور ؛ ١٩٦ : سهام الذاريات ؛ ٢٠٠ : امانة « الاحزاب » ؛ ٢٠٩ : ممدوح « هل أتى » (قرآن ٧٦ : ١) ؛ ٢١٠ : « النبأ العظيم » (قرآن ٧٨ : ٢) ؛ ٢١٥ : علامة الطلاق ؛ ٢١٦ : عذوبة القطر (= الوحي ، المعرفة) ؛ ٢١٥ : هلال الشهر ؛ ٢١٦ : لؤلؤ الاصداف ؛ ٢١٨ : سرّ الحروف ؛ ٢٢٥ : روح الاشباح (وهي اجسام الائمة المنظورة) ؛ ٢٢٩ : الشهيد المقتول ؛ ٢٣٥ : مكسّر الاصنام ؛ ٢٣٦ : صاحب الاذان ؛ ٢٤٠ : شيث البراهمة ؛ ٢٤٢ : ذو من البطارق ؛ ٢٤٣ : بطرس الروم ؛ ٢٥٠ : شكاة النور ؛ ٢٥١ : إمام أرباب الفتوّة ؛ ٢٥٩ : مهدي الاوان ؛ ٢٦٠ : عيسى الزمان ؛ ٢٦١ : وجه الله ؛ ٢٦٧ : ليث بني غالب ؛ ٢٦٨ : عليّ بن ابي طالب .

ان القرآن هو مصدر ثلث هذه الاسماء على الاقل . وهي تحشر في الاسلام كل الشعوب وكل الفرق (انظر الارقام من ١٢٧ الى ١٣٣ ومن ٢٤٠ الى ٢٤٣) مجتمعةً في يوم الدينونة الاخيرة لتؤدي حساباً عن قبولها بالتجلي الالهي بين الناس ، تجلي الله في صورة انسان سُمّي بواحد من هذه الاسماء التي أوحيت من قبل فاعتُرف له بها وبها دُعي للحصول على النجاة . وهنا تعترض مشكلة تعمقت في البحث عنها الفِرَق الشيعية : أهذا التجلي الالهي هو تجلي « السين » ، اعني تقديس شيخ عارف بواسطة الروح ؟ ام هو تجلّي « العين » اعني الملكوت الصامت لله المعبود ، مقدس الأمام ؟ ام هو تجلي « الميم » ، اعني شهادة كلام الله على لسان نبي ؟ ان اغلب الاسماء المذكورة اعلاه هي سينية (راجع الارقام : ٤ ، ١٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٦٤ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠) وهي تلمع الى ذلك الروح القدس الذي كان هادياً سامياً للخَضِر ومن بعده لعيسى ثم لسلمان ، والذي سيستقرّ في روح الحاكم الاخير . ولكن هنالك اسماء اخرى تشير إما الى الانبياء ، وبشكل خاص الى محمد ، فهي اذاً ميمية (راجع ارقام : ٥ ، ٦ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩) ، وإما الى اوصياء الانبياء (راجع ارقام : ٩٨ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٤٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥١) على الأخص عليّ) . واخيراً توجد اسماء تختص بالالوهة اللامخلوقة الصامتة (راجع ارقام : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، [قابل مع « هيولى الكواكب »] ٤٥ ، ٧٦ ، ٢٠١) . فهي اذاً عينية . ومصدر الخطبة هذه هو دون شك امامي « عيني » ، لأنه يكرّسها كلها لتأليه عليّ . ولكن نموذجها قد يكون ، على ما يظهر ، « سيني »

المصدر ، بهدفه الاشارة الى الحاكم النهائي الذي عليه سيستقرّ الروح — عيسى (سلمان ، حمزه) .

لقد لاح للاسلام ، بصحبة « الانسان الكامل » الموضح دلائلَ المسيح اليهودي ما لم يخطر في انظار اسرائيل : اعني ذلك الدور النشوري التمهيدي الذي ستقوم به « المرأة الكاملة » ، تلك « المرأة » المضطهدة في رؤيا يوحنا ، التي سيولد منها « الانسان الكامل » . وبهذا الصدد اننا نحيل القارئ الى تلك الخطبة النصيرية العجيبة المكرسة لفاطمة[1] ، او بالاحرى « للأنوثة » المتجلية في كلتا المريمين ، مريم بنت عمران ومريم بنت يواقيم ، « صخرة الصحراء ذات العيون الاثنتي عشر » . اما الآفة الوحيدة في هذه الخطبة فهي أنها توثق نسب الميلاد الروحي (حيث لها الفضل بانها تجمع بين « المرأة » و « السين ») بمخلقات ميلاد دموي مادي . ولقد كان الحلاج اصدق حين عبّر عن ذلك النسب بكلمة اصح : « اسرارُنا بكرٌ ما افتضّها الا خاطر الحق » .

« ان صحة « ختم الولاية » للحكيم الترمذي ، وكنت قد نشرتُ تصيدُ وفقاً لابن العربي (« مجموعة نصوص » ، Recueil ، صفحات ٣٣ — ٣٦ التي توافق « الفتوحات » ، جزء ٢ ، ص ٤٤ — ١٥٤ ، و ٤٥٤) ، تؤيدها الان تلك الفقرات الملائمة للحكيم الترمذي ذاته في « نوادر الاصول » طبعة ١٢٩٣ هـ ، ص ١٥٧ — ١٥٨) ؛ راجع ابن العربي عن الاولياء العيسوية (في « الفتوحات » ، جزء ١ ، ص ٢٤٩ — ٢٥٥ ؛ جزء ٢ ، ص ٦٤ — ٦٥ ؛ « رسالة القدس ») » .

---

١) راجع بحثي في « العبادة النصيرية لفاطمة » .

« *Gnost. Kult der Fatima* » (Zürich, 1938), Eranos - Jahrbuch, 162-173 .

فيما يخص بالعلاقة بين فاطمة ومريم ، لنلاحظ ان والدة المهدي لا بدّ من ان تكون نصرانية نبيلة الاصل (من سلالة بطرس) . والأئمة مولودون من « السين » (الذي هو الروح القدس) عند السيئة ، واسم عذراء ، وهي تحمل من السين ، كما ان مريم « حملت باذنها » ابنها الذي بشّرها الملاك به متلفظاً باسمه (قرآن ٣ : ٤٠) .